مجلة المفكر

EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الثاني

(جمادي الثانية 1446هـ/ ديسمبر 2024م)، ص106– 122

شيوع الصنائع والحرف والعادات المنبوذة والمحرّمة من مقدمات سقوط الأندلس

The prevalence of hated and forbidden crafts and trades is a prelude to the downfall to the Al-andalus.

[1] د/ رافع رضا RAFA REDA

[2] د/ تومي نور الدين TOUMI NOUREDDINE

[1] جامعة البويرة (آكلي محند اولحاج)

[2] جامعة المدية (يحي فارس)

الإيميل:r.rafa@univ-bouira.dz

الإيميل: toumi.nourredine@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 2024 /10/09

تاريخ القبول: 2024 /12/10

الملخص: تتناول هذه الدراسة بالتحليل أثر شيوع بعض المهن والصنائع والأعمال الممقوتة أو المنبوذة، وكذا المحرمة في شرعنا الحنيف في التمهيد لبداية السقوط ولو نسبيا للأراضي الأندلسية في أيدي النصارى، هذه الصنائع والحرف التي بدأت في الانتشار بين العوام في إقليم الأندلس لأسباب عديدة حتى صارت مألوفة بين الناس رغم قبحها أو تحريمها، على غرار التسول وبيع الخمور والدعارة والشعوذة والسحر، وكان ظهورها نتيجة لعوامل عدة جمعت بين السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني، وأثر حتى في شخصية الأندلسي وساكنة الأندلس عموما، والذين كانوا لوقت ما يوصفون بالرقي والتحضر، ولو أن التأثير كان بطيئا نسبيا وهو صفة التطوات المجتمعية، إلا أن هذا التغير وجب رصده وتبيينه، بالرغم من ندرة المادة المصدرية المتناثرة في ثنايا المصنفات الأدبية والفقهية والتاريخية.

الكلمات المفتاحية: الصنائع ، الحرف ، المهن ، المنبوذ، المحرّم ، الأندلس.

مجلة المفكر

EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد الثامن / العـدد الثاني

(جمادي الثانية 1446هـ/ ديسمبر 2024م)، ص106– 122

Abstract:

This study deals with the spread of forbidden and hated professions and industries in al-Andalus ,and how they paved the way for the fall of al-Andalus; These professions and crafts spread among people until they became normal; Such as begging, selling alcohol, prostitution, magic and sorcery, The emergence of these works is due to political, social, economic and religious reasons, It affected the character of the Andalusian man, who was previously described as civilized, Although this effect was slow, It is the nature of studies related to society, Despite the scarcity of source texts that have reached us, distributed in literary, historical and jurisprudential sources.

Keywords: crafts; Army; Almohad; Al-andalus.

1. مقدمة:

عند الوقوف عند الأسباب الموضوعية لسقوط الأندلس نجد بعد التمحيص والتدقيق أسبابا كانت إيذانا ببداية النهاية لحضارة رقّت الإنسان لمستوى شهد به العدو قبل الصديق، "ولم يرتبط تاريخيا سقوط الأمم وزوالها الحضاري بسبب وحيد، بل نجد أن هناك تظافرا لعدد من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مجتمعة، ومن هذا المنطلق فإن الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس لم تخرج عن هذه القاعدة المألوفة، رغم تفاوت واضح في هذه العوامل من خلال التأثير والشيوع، كما أن التقدم الذي وصلت إليه الأندلس أوقعها فيما يسمى بالإغراق في الترف والشهوات تارة والخنوع والدعة والميوعة والخلاعة والتفاهة تارة أخرى، وهي من أبرز العوامل التي أدّت إلى تلك النهاية[1] بالرغم من محاولة كثير من الأقلام حصر أسباب السقوط في الجانب الديني العقدي وهزيمة الصليب للهلال، وجعل الطابع الديني

المقدس في تقاطع الحركة التاريخية للإسبان المسيحيين مع الأندلسيين المسلمين[2]، والتي كانت إيذانا بنهاية عصر برمته (العصور الوسطى) وبداية العصور الحديثة، ومن هذا المنطلق تأتي إشكالية البحث المتمحورة في التساؤل التالي: ما مدى تأثير شيوع المهن والصنائع وكذا الحِرف والعادات المنبوذة بين العوام والمحرّمة في الدين الإسلامي في التمهيد لسقوط الأندلس ؟

هذه الإشكالية وما صاحبها من تساؤلات فرعية حول ماهية هذه المهن والحرف وكذا الممارسات وتأثيرها في المجتمع الأندلسي تهدف بشكل خاص في الكشف عن تأثيرها السلبي بعد أن تغلغلت في أوساط العامّة وربمّا الخاصة، وهو هدف هذه الدراسة، كما أن البحث في دواعي الترف وما ينجم عنه من مظاهر سلبية وخيمة والوقوف عند بعضها والتي أضرت بالمجتمع الأندلسي يعد حافزا مهما للموضوع.

2– مقدمات سقوط الدول في الأدبيات التاريخية والاجتماعية :

تناول كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع أسباب تدهور الدول والحضارات وزوالها، وحاولوا التنظير للموضوع من زوايا مختلفة، على سبيل المثال إدوارد جيبون الذي بيّن في كتابه "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" أن تلاشي إحساس الفرد بمسؤوليته تجاه مجتمعه، وكذا انهيار المسؤولية الفردية من أهم أسباب السقوط[3] ومن جهة أخرى حصر المفكر أرلوند توينبي انهيار الأمم والحضارات في ثلاثة أسباب ، أولّها خفوت وبهوت القوة الإبداعية ، ثانيها سحب الأغلبية ثقتها وولائها للأقلية المسيطرة الحاكمة، وثالثا ضياع وحدة المجتمع الداخلية، مستبعدا كل أشكال التدخلات الخارجية من العدوان والغزو، معتبرا الأديان العليا غير مسؤولة تماما على هلاك أي حضارة.[4]

بينما لخص ابن خلدون من جهته أحد أسباب انهيار الدول بقوله: "عندما تنهار الدول يكثر فيها المنجمون، والمتسولون، والمنافقون، والمدّعون، والكتبة والقوّالون، والمغنون النشاز، والشعراء النظّامون،

والمتصعلكون، وضاربو المندل وقارعو الطبول، والمتفيهقون، وقارئو الكفّ بالطالع والنازل، والمتسيّسون، والمدّاحون.[5]

وما يجمع الأصناف التي ذكرها ابن خلدون في النّص الفريد أنّ جلّها أو كلّها حرف وصنائع احترفها أصحابها بدافع من المكر والاحتيال للاسترزاق غير الشريف ولا حتى الجائز أحيانا، ويرى هؤلاء أن الغاية تبرر الوسيلة في نظرهم، ولا تهم الطريقة التي تُحصّل بها الأموال والمنافع ، وعندما لا تُنكر العامة ما ترى تستشري هذه الأصناف وتكثر، ونرى في مراحل عديدة من سقوط دول الأندلس، حتى السقوط الأخير في حاضرة غرناطة أنه طفى على السطح الاجتماعي حرف وصنائع جمعت بين المحرم شرعا والمنبوذ عُرفا أو أخلاقا عند العوام والخواص، لكنها شاعت واشتهرت[6]، ولكن مكمن الصعوبة هنا جلّ أصحابها وروادها من عامة الناس وأسافل الطبقات الاجتماعية، فلم تعرّ المصادر التاريخية لها اهتماما إلا ما ورد عرضا في بعض المصنفات ، ولابد للباحث والحالة هذه أن يجمع شتاتا متناثرا بين دفات هذه المصادر.

ولا يمكن في هذا الصدد أن ننكر تأثير المسيحيين في عادات وتقاليد المسلمين الأندلسيين في مظاهر الاحتفالات والعادات الاجتماعية بارزا للعيان، ولم يعد الأمر مستهجنا كما كان في الأزمنة الأولى بعد الفتح الإسلامي، بالخصوص بعد شيوع الزواج المختلط بين المسلمين وأهل الكتاب، "فصار الأندلسيون يحتفلون بعيد النيروز الفارسي الأصل، بل وصاروا يزوجون بناتهم في يوم النيروز تبركا وتفاؤلا به[7]، وعيد العنصرة والنيروز وغيرها .

كما ظهر التأثير المسيحي في طقوس الجنائز، ومنها ما ابتدعه الأندلسيون في بناء القبور والقبائب والسقائف والروضات عليها، وبالغوا في زخرفتها ونقشها حتى بلغت أوّجها في عهد دولة غرناطة النصرية، رغم النداءات التي نسمعها من العلماء والتي أوردتها مصنفات النوازل والحسبة لتجنب هذه الظواهر.[8]

1– نماذج من الحرف والصنائع والأعمال والسلوكات المنبوذة والمحرّمة في المجتمع الأندلسي:

امتهن الأندلسيون بعد الفتح الإسلامي حالهم كحال الساكنة في العالم الإسلامي حرفا وصنائع شتى وأجادوا فيها وبرعوا[9] لحد كبير، حتى أن ابن غالب الأندلسي (ت546هـ) قال عنهم أنهم "هم أصبر الناس عن مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع"[10] ولكن الأمر لم يبق على حاله مع استفحال الترف من جهة، والحاجة والفقر من جهة مقابلة، فشاعت كثير من الأعمال والحرف التي انتشرت بين العوام بالخصوص ، ومن أبرزها :

ا/التسّول: بداية لابد أن نبين أن الإسلام الحنيف ينظر إلى الفقر أنه ابتلاء من الله تعالى، لقوله عز وجل : " وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ والْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وبَشِرِ الصَّابِرِينَ"[11] كما يكون أحيانا عقابا للكفر أو الشرك وكثرة المعاصي، لقوله تعالى : " وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ[12] ، ويكون كذلك إرادة إلهية لمصلحة العباد حتى لا يطغوا في الأرض، لقوله تعالى:" وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ".[13]

لكنه بين هذا وذاك خطر وشيك على العقيدة والدين، لأن النبي الكريم كان يتعوذ دائما من الفقر الذي يؤدي أحيانا إلى الكفر، فالأصل أن المسلم يعيش كريما مكتفيا لا يسأل الناس أعطوه أو منعوه، وفيه نهي واضح عن اللجوء إلى التسول والطلب من الناس، لقول النبي الكريم: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه".[14]

والحقيقة أن التسّول في مضمونه ليس حرفة ، لكن اتخاذه من طرف الكثيرين وسيلة للإسترزاق جعله يدخل ضمن السياق الحرفي، ويصف أحد الباحثين المهتمين بهذا الموضوع أن شريحة المتسولين ربما

تُعدّ أكبر شريحة تعرضت للطمس والنسيان والإهمال، لأنها وببساطة لا تؤثر في العملية الإنتاجية بتاتا، بل وتمثل عبئا يثقل كاهل الدولة.[15]

ومن باب الأمانة لابد أن نقر أن نظرة الأندلسيين للتسول تختلف كليا عن نظرة المغاربة عموما، بل كانت منفردة ومميزة، "حيث كانوا **يستقبحون عادة التسول** وبالخصوص عند من ثبتت قدرته على الكسب، بل ويصل الأمر بهم أن أهانوه وسبّوه فضلا عن التصدق عليه**"**.[16]

وقد ذكرهم ابن عبدون في رسالته عن الحسبة المتسولين في الأندلس بلفظ السُعاة، حين قال " لا يُترك ساع يسعى يوم الجمعة في داخل الجامع ويتخطى رقاب الناس... إذا أرقى (صعِد) الإمام على المنبر يخطب [17]، وهو ما يبين وجود هذه الشريحة بالأندلس منذ عهود ، لكن وجودها لك يكن بالشكل المؤثر، كما أن وجود المتسولين بأعداد قليلة هو شيء طبيعي في الغالب، لكن كثرة هؤلاء ووصولهم لأعداد هائلة هو أمر ينم عن حدوث مستجدات ألّمت بالمجتمع لعلّ أوضحها هو زيادة الهوة المجتمعية بين الطبقات، وانحدار الطبقة الوسطى للحضيض، "منها نكبة الأعيان وفقرهم ومصادرة أموالهم لأسباب عديدة يجعلهم "يتكففون الناس حيارى على الأقطار[18].

وهروع الخلفاء لأعمال الصدقات من حين لحين لم يكن لغير من الواقع البئيس شيئا، "كما أن المستوى العلمي والاجتماعي لهؤلاء والموصوف بالمحدود جدا لم يُمكنها من بلورة وعي سياسي موحّد لتدافع عن كيانها. [19]

ويظهر جليا دور المتصوفة الذين كان من عاداتهم عدم إرسال السائل خائبا، فقد كانوا يطعمون الطعام ويخرجون للمتسولين ويوزعون لهم ويمنحوهم اللباس[20] رغم أن دورهم في المغرب الإسلامي كان واضحا مقارنة مع الأندلس، لأسباب عديدة لا مجال للتفصيل فيها.

وعموم القول أن ظهور التسول بشكل كبير في المجتمع الأندلسي كان أول العلامات على الإنهيار الاجتماعي والاقتصادي الأخلاقي وسوء توزيع الثروة الحاصل في المجتمع الأندلسي والطبقية التي بدأت تظهر وتتكشف بداية من القرن الخامس والسادس هجريين إلى مرحلة السقوط الفعلي .

ب/البغاء: بداية ومن نافلة القول أن العمل في البغاء واتيان الذكور من العمال المحرّمة قطعا ، وقد صف الأذفوني (784هـ) في نصّ فريد أهل الأندلس بقوله " أنتم يا أهل الأندلس فيكم خصلتان: محبّتكم الشباب وشربكم الخمر [21]، والحقيقة أن التغزل بالغلمان (الذكور) لم تكن مألوفة عند الناس حتى ساد الترف والدعة في الناس، وصار إتيان الجواري أمرا مألوفا ومملا، فعاد هؤلاء يبحثون عن أمر جديد وهو التغزل بالغلمان ذوي الوجه الحسن، وكذلك البحث عن التميز بالخصوص عند الطبقات الأرستقراطية[22] التي بدأت في التوغل والتغول، بعد أن زادت الهوة بين الطبقات الاجتماعية في الأندلس.

وقد أضحى الوله بالغلمان كذلك والتعلّق بهم في المجتمع الأندلسيّ بضاعة رائجة أقبلَ عليها الأندلسيون بنهم يتذوّقونها ويعجبون بها معبّرين عن ولعهم وتفنّنهم بها كابن عمّار الذي كانت له جولات في هذا المجال حيث يشير ابن بسّام إلى أنّ التغزّل بالغلمان قد استشرى كثيراً في الأندلس في مراحلها الأخيرة[23]

ولم يكن هذا التغزل بالغلمان عيباً يلام عليه صاحبه بالخصوص في الوسط الأرستقراطي، فبالاطلاع على نماذج شعراء الأندلس في عصر أمراء الطوائف مثلا نجد ذلك الإعجاب المتجذر والإحساس بالجوارح في كل جوانب الغلام وصفاته، وقد ظهرت ظاهرة التغزّل بالمذكّر بشكل واضح وفاضح، ويقال إنّه كان في إشبيلية غلام يسمى موسى، وقد بالغ كثير من شعراء إشبيلية في التغزّل به وأبرز ما قيل فيه مثلا:

فرّ إلى الجنّة حوريها وأصبح العشقُ في مأتمِ
وارتفع الحسن من الأرض بعضهم يبكي إلى بعض[24]

بالنسبة للبغاء والنساء اللواتي احترفنه ، فإن التكسب كان السبب الرئيس لعملهن في الغالب حيث كن يقمن في بعض الفنادق المعروفة بدور الخراج ، لذا يسميهم ابن عبدون بالخراجيات، ويتكلم في موضع آخر عنهن باسم الطرازات بقوله:قطع الطرازات عن السوق واجب فإنما هن (بمعنى بغايا)[25]

وانتشر بين أهل الأندلس نساء وظيفتهن توصيل الزبائن ممن يردن الفاحشة للنساء بطريقة سرية ويضمن لهم الزبون مبلغا من المال نظير هذه الخدمة، وقد أورد الزجالي(ت694هـ) في أمثاله هذا اللفظ في إحدى الأمثال العامية بين أهل الأندلس في قولهم: " المرأة المديدة ما تحتاج لقويدة"[26] ويقصد بالمديدة التي لا ترد من يطلبها للفاحشة والقويدة من تعمل واسطة بين النساء والرجال.

كما انتشرت هذه البيوت والتي كانت تسمى بيوت الحظوة عند الأندلسيين في البيوت والفنادق واستخدمت كثير من الإماء المملوكات كرها لغرض التكسب من جسمهن، وحدث كثير من الجرائم في هذه الأماكن حتى للعلية من القوم.[27]

أما السحاق فهو أن تأتي المرأة مرأةً جنسيا، وقد أعتبره جل من العلماء من الكبائر، وإن كان متعارفا أنه لا حد فيه كالزنى مثلا، يجوز فيه التعزير لأنه من المعاصي، وتشير مضمون المدونة النوازلية وكتب النوازل إلى تأديب المرأة دون التمثيل والتشويه بها، مثل قطع جارحة من الجوارح أو نحوه[28] وقد شاع في الأندلس أن الإماء والجواري كنّ يمتهنّ هذا الأمر وقد تشتري المرأة جارية لهذا الغرض، وإن كان طابع هذا الأمر سراً، وهذا ما يُفسر نقص المادة المصدرية وورودها على شكل متفرقات لا تشفي غليل باحث.

ج/ الصعاليك وقطاع الطرق والناهبون: عند دخول الدول عموما مرحلة اللاعقاب واللاحساب تكثر أعمال الاختلاس والنهب والسرقة والتعدي إما في الوظائف وإما عند قطاع الطرق والصعاليك الباحثين عن التكسب السهل، ومن أمثلة التعدي على أموال الناس ما كان من أمر الخراصين وهم المكلفون بجمع الضرائب، حيث صارت الرشوة ونهب الأموال من أهم أعمالهم، فقد وصفهم ابن عبدون الإشبيلي "فساقا

أكلة السحت أشرارا سفلة، لا خوف ولا حياء ولا دين ولا صلاة لهم، إلا طلب الدنيا وأكل السُحت والربا، باعوا أديانهم بدنيا..."[29]، وأثّر نهب المال العام سلبا على الواقعين الاقتصادي والاجتماعي بسبب ضياع الحقوق، وانتشار الظلم والبغي ، فاختلّ ميزان العدالة وكان ايذانا بذهاب ريح الدولة[30] وصارت الطبقية عنوانا بارزا عندما لخّصها ابن الخطيب متحدثا لما آلت إليه غرناطة: "...صنف همّه الدنيا التي ينالها بسبب الولد ، ....وصنف مرتقٍ من الدّيوان مشهور العناية والمكان أو مجهول الشأن راض بحظّه في الزمان لا يتشوّق إلى المزيد ولا يحذر من النقصان، ..وهذا الصنف المنازع المنافس بين أن يصمت فيموت بدائه أو يجهر بالمنازعة فينتهي على قدر الله وقضائه، ...وصنف من أهل الدنيا والآخرة قلّدوا أهل الحل والعقد والقبول والرّد اجتهادهم[31]. وعموم القوا أن هذا الظاهرة قد ظهرت للعيان عند ضعف السلطة وانشغالها بمشاكل الحكم، فانعدم الأمن والسكينة، فاغتنم الصعاليك وقطاع الطرق هذا الظرف للإغارة والنهب.

د/ السحرة والمشعوذون والكهان: من المعروف أن اتيان السحر والكهانة محرّم شرعا من القرآن والسنة[32]، ورغم هذا صارت هذه المهنة مصدرا للإسترزاق عند الكثير، وللتكسب السهل والسريع ، وقد نقل لنا ابن الخطيب نصا بالغ الأهمية حول أحد المنجمين وهو واقف بين الناس ممتدحا قدرته الكبيرة في التنجيم وقراءة المستقبل ، ومما قاله هذا المدعي"... أنا استذكرت بالأنبا، فرحة الإقبال وترحة الإدبار، وطالعت أقليدس فاستنبطته، وصارعت المجسطي فجسطته، وارتمطت إلى الأرتماطيقا، وأطقت الألوطيقا، ولحظت التحليل بحلّ ما عقده، وانتضيته ما مطل به الجهابذة فنفّذه، وعاينت زحل، حين استقلّ على بعيره ورحل..."[33]. ونظرا لتفشي السحر والشعوذة في الأندلس فقد حفلت كثير الأمثال الشعبية الأندلسية بوصف هذا العمل ، ومنها ما ذكره الزجالي في أمثاله: " ضرابة الخفيف المقرع والتكتيف[34] ، والخفيف يعني الرصاص ، ويستخدم في الزجر والسحر وهي طريقة لمعرفة الغيب، وهو ما يبين كذلك هروع العامة وهوربهم من واقعهم المرير.

هـ/ بيع الخمور: حرم الشرع الحنيف تناول الخمور وبيعها، وقد تناولت المصنفات النوازلية وكتب العقود وكتب الحسبة الموضوع بكثير من الحزم، ورغم هذا فإن الأندلس شهدت على مرّ مراحلها تفشي معاقرة الخمور وبيعها على نطاق واسع، حتى أن الدولة الموحدية قد انتقدت ما آلت إليه الدولة المرابطية من استلاء النساء على مقاليد الأمور وصارت مشتملة على كل صاحب خمر وماخور (وهو الحانوت الخاص بشرب الخمر) [35]، وحتى العصر الموحدي لم يخل من هذه الظاهرة المقيتة، حتى أن الأمر قد خرج عن السيطرة، حين بين ذلك عبد المؤمن بن علي في رسالة الفصول:"... ...والله الله في البحث عن الخمور وتقديم النظر في أمرها ...فانها مفتاح الشرور...وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب وخذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصارهم[36] بل ووصل الأمر بالتفنن في صناعة كؤوس الخمور ووشيها بالذهب، على حد قول الشاعر : وكأس من الليل مخلوقة تبدت من التبر فيها نجوم.[37]

ويبدو أن هروب العامة للخمر راجع لكثرة الهموم والضغط الإجتماعي الرهيب الذي غلب على غالبية الساكنة ، وتحول الواقع من الرغد إلى الضيق[38] وصارت موضوعا في الأشعار والأزجال والنصوص، ولم يتحرج العامة من شربها ووصفها ، وكانت إيذانا بتفسخ المجتمع الأندلسي وانهيار قيمه.

3 . الخاتمة: من خلال هذا العرض لبعض الحرف وبعض الصنائع المنبوذة والمحرمة التي ظهرت ببلاد الأندلس يمكن إيجاز نتائج الدراسة في النقاط التالية:

– من المعروف أن التطورات المجتمعية ومميزاتها بطيئة جدا، ومن هذا المنطلق فإن تأثير النسيج الحرفي والصناعي لا يظهر في المدى السريع، بل تمتد تأثيراته لأزمنة متوسطة أو حتى بعيدة، وهذا ما ينطبق تماما على النسيج الحرفي بالأندلس الذي بدأت تظهر عليه علامات غير صحية، من خلال طفو حرف وصنائع غير شريفة وغير جائزة وغير مألوفة أصلا.

– تناولت المصنفات النوازلية ومصنفات الحسبة العملية هذه المظاهر السلبية والعادات المستهجنة التي ظهرت في النسيج الحرفي والاجتماعي وبينت آثارها السلبية على المجتمع، لكن تغلغلها في الواقع المجتمعي جعلها تزداد يوما بعد يوم مما جعل التحكم فيها بالصعوبة بما كان.

– إن ظهور التسول والبغاء والنهب والسرقة وكذا الاحتيال يدل دون شك ببداية انهيار أخلاقي ينم عن علامات الطبقية المقيتة التي ما فتئت تنخر في الجسد الأندلسي.

– تفشت ظاهرة السحر والشعوذة بين العوام كنوع من الهروب من الواقع البئيس ومحاولة لتحسين الوضع للأحسن، واستغل هؤلاء السحرة سذاجة العوام للإسترزاق منهم، كما مارسه الخواص من أجل الإبقاء على السلطة والنفوذ .

– لا يمكن نفي تأثير النصارى على كثير من الظواهر السلبية التي ميّزت المجتمع في وظائفه الحرفية ، وهنا يطرح إشكالات جديدة حول دور العلماء والفقهاء وأدوارهم وعلاقتهم بالسُلط المتعاقبة على حكم جزيرة الأندلس.

– يحتاج موضوع الحرف والصنائع المستجدة والعادات والسلوكات المستهجنة بالغرب الإسلامي عموما لدراسات جادّة جديدة تميط اللثام على كثير من الحقائق التاريخية .

4. ملحق 1: حرف وصنائع أهل الأندلس

وأما البربر فإنهم احترفوا بجلب البقر والقمح والسمن والزيت والعسل والوصف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك ، وأهل الحاضرة منهم احترفوا ضفر الحلفة وخدمة الأوعية أي السلل للزرع، وفتل القنب والمحاريث والبراذع للبهائم والحبال والشطاطيب لكنس الديار وصيادة الطيور للأكل والحملان في الأسواق ، وحملان الزرع إلى الديار وبيعه في الأسواق وخرز الدلاء وجلب الماء والبناء وطبخ الجير والجبص ونحو ذلك .**وأما من أسلم من أهلها**، فمن كان منهم في البادية فاكتسبوا البقر والغنم والحرث والعسل وأهل الجبال منهم كانوا يغرسون الجنات والفواكه وقطع الخشب وطبخ اللحم ، ومن ولي البحر منهم كانوا يجلبون الحوت والسردين ويصنعون السفن وآلاتها إلى غير ذلك ،**وأما الموالي** فأما من كان بالحاضرة منهم فكانوا يحترفون بالدباغة والحياكة والخزازة وبيع النعال المخروزة وبيع الحياك والجلاليب ونسجها والضرب بالطبول والبنود والحجامة وحمل الموتى وحفر قبورهم ودواء المرضى وعلاج الجرح والمرض وطحن بالرحى وخرط عود والقيام بالمساجد والآذان بها ورصد وقت وبيع لحم ، ونجارة خشب وعظم سرج وصنع كسوة جياد وسرير مكحلة وخدمة فخار وغيره، وسبك حديد وآلة حرب وصنعة نحاس ومبيت بالأسواق بالليل وحرس الفنادق وتسمير البهائم وحمل السلوع ...**وأما من أسلم من اليهود** فاحترف بخياطة الملف والثياب وظفر القيطان الذي يُخاط مع الثياب ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينها وصبغها وتصفيفها وحجامة وبلاجة (صناعة مغاليق الأبواب)، ودلالة بالأسواق وبيع لبن ممخوض وبيع وإصلاح نعل مخروز .**وأما الموالي منهم** فاحترفوا طبخ الخبز والسفنج والشواء وصنعة القدور للطبخ وبيعها وعصر الزيت وحمله والصابون وبيع ملح وحوت وشحم وصناعة فانيذ (كريات سكرية مصبوغة وهي كلمة فارسية)، وبيع ادوية وعشب وتسفير كتب وتجبيص الرباع وتزويق الخشب وتزليج الرباع وصناعة منسج للحياكة وصناعة الصفر وصباغة وخدمة حمام وسقي ماء وسبك فداويش وشعرية وثريد ومقروط ورغائف

بقصد البيع ، وبيع صوف وكتان وآلات الطرب والتغني بها والضرب للدنانير والدراهم وحلي النساء وخرط مرجان وبيعه وكراء أواني البنائين وحفر بير وتصفية معدن وخدمة الرخام ...وأكثر جيوشها كانوا من العرب الذين دخلوا اليها الى أن رجع أمرهم إلى أمراء المغرب فأقرهم يوسف بن تاشفين على ما كانوا عليه وأيدهم بجيوش الشورى ...إلى أن غلب الموحدون فردوا أهلها نائبة (جماعة مؤدية للضرائب) لأهل المغرب، فضعُف أهل الأندلس.

مأخوذ من إسماعيل بن الأحمر وآخرون ، بيوتات فاس الكبرى ، دار المنصور للطباعة الرباط، 1972، صص24– 25.

ملحق 02 : ابن الخطيب بصف المجتمع في أيامه :

... وكان الناس يومئذ أي في عهد هشام المؤيد لا بل في كل زمان أربعة، فأربعة همّه الدنيا التي ينالها بسبب الولد وهبه بالغاً أو مراهقاً أو طفلاً في المهد وجنيناً في المشينة، وهم صنائع الحكم أي الحاكم وخدّامه وعمّاله وفتيانه ورجاله، وصنف مرتقٍ من الدّيوان مشهور العناية والمكان أو مجهول الشأن راض بحظّه في الزمان لا يتشوّق إلى المزيد ولا يحذر من النقصان، قد تساوت في الدول أحواله وسكنت إلى الرزق والمفروض آماله... فهو هادن وإلى فئة العافية راكن، وصنف يأمل أمراً ويشبّ إن قدر جمر... مستوحش بخس حقه ومجد سبقه... وهذا الصنف المنازع المنافس بين أن يصمت فيموت بدائه أو يجهر بالمنازعة فينتهي على قدر الله وقضائه، وكان في ذلك الوقت أضعف الأصناف... وصنف من أهل الدنيا والآخرة قلّدوا أهل الحل والعقد والقبول والرّد اجتهادهم.. وهم أشرف أوطاناً وأعظم سلطاناً... وهم جمهور الناس من الفقهاء والعلماء والدّهماء وصنف غارم لا همّ له... وهم أوباش الأسواق وحمقى ما لهم من أخلاق" **مأخوذ من كتاب: أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب، ص ص 44–47.**

5- **الهوامش:**

[1] نور الدين عسّال، **سقوط الأندلس: العوامل والتجلّيات"قراءة في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري"**، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية ، مج 06، ع11، جوان2020، ص52.

[2] فؤاد كبداني، شريف الدين بن دوبة، **المراحل الأخيرة للمسلمين ببلاد الأندلس بأقلام إسبانية**، مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مخبر الدراسات الاجتماعية والنفسية والأنثروبولوجية،جامعة أحمد زبانة، غليزان، مج07، ع01، 2021، ص579.

[3] انظر، إدوارد جيبون، **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، ترجمة مُحَمَّد علي أبو درة، مراجعة وتقديم أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، مصر، 1997.

[4] يعقوب مختار، **الحضارة والتجربة الدينية عند أرلوند توينبي**، مجلة مقاربات فلسفية، مج08، ع2021،01، ص343.

[5] ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي)، **المقدمة**، عارضها بأصولها و حواشيها محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2012، ص 235.

[6] رضا رافع، **المهن والصنائع بالغرب الإسلامي في العهد الموحدي**، رسالة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ،جامعة الجزائر2، 2018، ص75.

[7] قبايلي طارق يوسف، يماني رشيد، **مظاهر البدع والإنحرافات في مجتمع ملوك الطوائف بالأندلس خلال القرن5هـ/11م**، مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، مج7، العدد8، فيفري2023، ص100.

[8] عصمت عبد اللطيف دندش، **دراسات أندلسية في السياسة والاجتماع**، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2009، ص196.

[9] أنظر ملحق 01.

[10] المقري التلمساني (أحمد بن مُحَمَّد)، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1949، مج03، ص150-151.

[11] سورة البقرة، الآية 155.

[12] سورة النحل الآية 112.

[13] سورة الشورى، الآية 27.

[14] مُحَمَّد بن اسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث1402، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1981، ج02، ص535.

[15] ابراهيم القادري بوتشيش، **المتسولون في المغرب والأندلس**، ضمن كتاب: **الإسلام السرّي في المغرب العربي**، سينا للنشر، مصر، ط1، 1995، ص161.

[16] المقري (أحمد بن مُحَمَّد التلمساني)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، تح احسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1997، ص220.

[17] مجهول، **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمُحتسب**، اعتنى بتحقيقه ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955، ص24.

[18] ابن عذارى المراكشي (أبو عبد الله مُحَمَّد)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تح مُحَمَّد ابراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1985، ص258.

[19] أحمد المحمودي، **عامّة المغرب الأقصى في العصر الموحدي**، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2009، ص90.

[20] ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي) ، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1997، ص405.

[21] الأذفوني(كمال الدين أبو الفضل بن جعفر)، **الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد**، تحقيق سعد مُحَمَّد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1996، ص584.

[22] قاسم عبد سعدون الحسيني، **ظاهرة عشق الغلمان في الأندلس: قراءة في الأسباب والدوافع**، دورية كان التاريخية، السنة الخامسة عشرة، ع56، يونيو 2022، ص30.

[23] إبن بسّام الشنتريني (أبو الحسن علي)، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تح احسان عباس،الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1979، القسم الأول، المجلد الأول، ط1، 1981 ،ص 211.

[24] مدلج، جودت، **الحب في الأندلس**، دار اللسان العربي، ط1، بيروت، د.ت، ص 254.

[25] ابراهيم القادري بوتشيش ، **واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي في كتب المناقب والكرامات، دراسة تطبيقية على الأزمة الموحدية في أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع** ،ضمن كتاب : **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة** ، دار الطليعة ، بيروت ، 1994، صص 106 -122.

[26] الزجالي عبد الله بن احمد القرطبي ، **أمثال العوام في الأندلس** ،تح مُحَمَّد بن شريفة، القسم الثاني ،منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي ، مستخرجة من كتاب ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام ،ص47 و149. وأورد الزجالي أمثلة أخرى في مصنفه منها ما يصف بعض النساء اللواتي توقفن عن مهنة البغاء وصرن يوصلن الرجال لموضع الزنا، منها: توبة خليدة تابت من ال... و رجعت قويدة....، وغيرها .

[27] ذكرت المصادر كثيرا من الأحداث التي تعود الناس على سماعها من قتل وتنكيل وسرقة في هذه البيوت، فقد وُجد الشاعر المعروف الفتح بن خاقان مقتولا في أحد فنادق مراكش الخنوية سنة 529هـ/1135،وقد ذُبح وعُبث به ، والمعروف عند الناس أن ذلك الفندق عرف ببغاء الإماء ، أنظر، ابن عبد الملك ، **الذيل والتكملة** ، س5، ق2، ص 531.

[28] اسماعيل بركات، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة ليحي المازوني المغيلي**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007/2006، ص92.

[29] مجهول، **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، جمعها ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص60.

[30] أنور محمود زناتي، **اختلاس المال العام في الأندلس 138–897هـ/756–1492م**، مجلة عصور الجديدة، مختبر تاريخ الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة وهران 1، مج12، ع01، ماي 2022، ص220.

[31] ابن الخطيب (لسان الدين)، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط2، ، 1956، ص 45.

[32] ، من أدلة التحريم من القرآن الكريم قوله تعالى: وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة، الآية102، ومن السنة الشريفة قوله ﷺ : صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: اجتنبوا السبع

الموبقات ، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك والسحر..." رواه البخاري ، كتاب الوصايا في قوله تعالى﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ رواه مسلم، رقم الحديث 89.

[33] ابن الخطيب (لسان الدين)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تقديم ومراجعة بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ج02، ص285.

[34] الزجالي، م س، مثل رقم1632.

[35] المراكشي (عبد الواحد)، **المعجب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح مُحَّد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949، ص135.

[36] **رسائل موحدية:مجموعة جديدة**، تحقيق ودراسة أحمد العزاوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، المغرب الأقصى، ط1، 1995، ، ص 66.

[37] ابن بسام الشنتريني، م س ، ص6، ص667.

[38] رقية بن خيرة، **معاقرة الخمور في المجتمع الأندلسي بين التنظير الشرعي والواقع التاريخي**، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع11، ديسمبر2016، ص145.